الفصل الحادي عشر

في الغرض من بناء الأهرام واختلاف وضع المقابر القديمة

قال المرحوم على باشا مبارك طاب ثراه الأهرام بفتح الهمزة جمع هرم مثل سبب وأسباب وأصل الهرم أقصى الكبر كما في القاموس ومنه اشتق الهرم الذي هو الطاعن في السن إلى آخر ماذا قال راجع الخطط الجديدة وقد استخدم الصفدي رحمه الله لفظه هرم بالفتح وهرم بالكسر في قوله

قالوا اعلا نيل مصر في زيادته ... حتى لقد بلغ الأهرام حين طما

فقلت هذا عجيب في بلادكم ... إن ابن ست وعشر يبلغ الهرما

وإذا أطلق لفظ الأهرام فلا ينصرف إلا لأهرام الجيزة الثلاثة لأنها مطمح نظراً لمتفرجين والسياحين والناثرين والناظمين وقد انفردت مصر بهذه الأشكال فليس لها في غيرها مثال وقد سلك القدماء في بنائها طريقاً غريباً من الشكل والاتقان ولذلك صبرت على ممر الزمان بل على ممرها صبر الزمان وقال ديودورا الصقلي انتفت الناس على أن هذه المباني من أعجب ما يرى بمصر وليس ذلك من حيث عظم أجسامها وكثر مصر فيها فقط بل أيضاً من حيث اتقان الصنعة وبديع الأحكام حتى أن العملة والمهندسين الذين بنوها أحق بالثناء عليهم من الملوك الذين صرفوا عليها الأموال وجلبوا لها الشاغلة لأن العملة والمباشرين أبقوا لساعة لومهم ومهاراتهم في صنعتم تحدثنا عن فضائلهم وتنبؤنا باقتدارهم بخلاف الملوك فإنهم أما جلبوا الأهالي بالقهر والظلم وإما بالأجرة من أموال وربوها أو سلبوها من الناس.

وقال ماريت باشا في كتابه مرشد السياح أما الأهرام فتبعد عن النيل بقدر ثمانية كيلو مترات وثلاثمائة متر وبناؤها من أغرب الأشياء حتى إن قدماء اليونان وغيرهم جعلوها أول العجائب السبعة[1] المشهورة قديماً واختلف المؤرخون في عمرها فذهب فريق منهم إلى أنه يبلغ سبعة آلاف

(1) عجائب الديب التي كان الناس تمتع منها في قديم الرمال حصر به في سبعة أشياء، وهي أهرام مصر ويضم رودس ومنار الإسكندرية والتربه أو البرية فهو مصر وجنائن بابل المعلقة وسوربابيل وهيكل بال المعروف وبرج المرو:

سنة وقال فريق آخر أنه يبلغ أقل من ذلك والله أعلم بحقيقة الحال وارتفاع الهرم الأكبر ١٤٦ متراً وبه ٢٥٦٢٥٧٦ متر مكعباً من الحجارة بعد طرح فارغه وقال المرحوم على باشا مبارك ومساحة قاعدة الهرم الأكبر فوق الجلسة ٥٣٣١٤ متر مربعاً يعي سبعة عشرة فدانا مصرياً من أفدنة هذا الوقت فلو فرضنا أن هذا الهرم موضوع في وسط جنينه الأزبكية لشغل ثلثيها بالتمام وأن ما به من الأحجار كاف لبناء سور يحيط بارض مصر ارتفاعه ثمانية أمتار وعرضه متران ويبتدئ من قبلي باب العرب بالإسكندرية إلى أسوان إلى البحر الأحمر ومن السويس إلى قرية العريش وقال ماريت باشا أن جميع الأهرام التي بمصر صارت الآن كنواة جردت من فاكهتها لأنه كان عليها طبقة من الحجر الأملس وزالت بالكلية والدليل على ذلك أن المأمون لما أراد أن يفتح الهرم الأكبر ما وجد له حيلة الأنقبه من جهة الشمال فوق خط تقاطع مستوى المركز مع أسطحة الهرم بشيء قليل فعثر صدفة بالسرداب وكانت كسوة الهرم الملساء باقية ولولا وجودها لكان ظهر له بابه وأن جميع الأهرام مهما كان نوع بنائها ليست إلا مقابر ملوكية عظيمة الحكم مغلقة من كل جوانبها حتى دهليزها ليس لها طاقة ولا باب ولا فتحة وقد آثر أصحابها أن يتمزوا بهم بعد موتهم عن سائر الناس كما تميزوا عنهم مدة حياتهم وترخو أن يبقي ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخي العصور.

وذكر هيرو دوت وعبد اللطيف البغدادي أنه ما رأيا الأهرام مكتوبة جمعيها من الخارج وعدم وجود الكتابة الآن مما ينبت أنها جردت من جميع كسوتها وقد أجمع مؤرخو هذا العصر على أن الهرم الأكبر قبر للملك(خفو) والثاني للملك(خفرع) والثالث للملك (منقرع) وجميعهم من العائلة الرابعة المنفيسية.

وذكر المقريزي نقلاً عن أبي الحسن المسعودي أن المأمون لما قدم مصر وأتى على الأهرام أحب أن يهدم أحدها ليعلم ما فيها فقيل له أنك لا تقدر على ذلك فقال لابد من فتح شيء منها ففتحت له الثملة المفتوحة الآن بنار توقد وحل يرئس ومعاول وحدادين يعملون فيها حتى انفق عليها أمواله عظيمه فوجدوا عرض الحائط قريباً من عشرين ذراعاً وقال أبو مُحَمَّد عبد الله بن عبد الرحيم في كتابة تحفه الألباب فتح المأمون الهرم الكبير الذي تجاه الفسطاط وقد دخلت في داخله فرأيت مربعة الأسفل مدورة الأعلى كبيرة في وسطها بئر وهي مربعة ينزل الإنسان فيها فيجد في كل وجه من تربيع البئر بابا يفضي إلى دار كبير فيها موتى من بني آدم عليهم أكفان كثيرة أكثر من مائة ثوب على كل واحد قد بليت لطول الزمان واسودت وأجسامهم مثلنا

ليسواطوا لا ولم يسقط من أجسامهم ولا من شعرهم شيء وليس فيهم شيخ ولا من شعره أبيض وأجسامهم قوية لا يقدر الإنسان أن يزيل عضواً من أعضائهم البتة ولكنهم خفوا حتى صاروا كالغثاء لطول الزمان أه وقال غيره لما فتح المأمون الهرم الكبير بعد جهد شديد وعناء طويل وجدوا في داخله مهاوي ومراقي يهول أمرها ويعسر السلوك فيها ووجدوا في أعلاها بيتا مكعباً وفي وسطه حوض من رخام مطبق فلما كشفوا غطاءه لم يجدو فيه غير رمه بالية قد أتت عليها العصور الخالية فعند ذلك كف المأمون عن نقب ما سواه فيؤخذ من جميع ما ذكر أن الأهرام كانت مقابر لبعض ملوك مصر ولا عبرة بقول من رغم أنها معابد جعلت للمعبود (أوزيريس) أو مراصد للكواكب أو مدرسة للمعارف الكهنوتية أو غير ذلك لأن الإنسان إذا دخل فيه يجد به جملة دهاليز وأروقه كما تراها في شكله مبيناً وهي

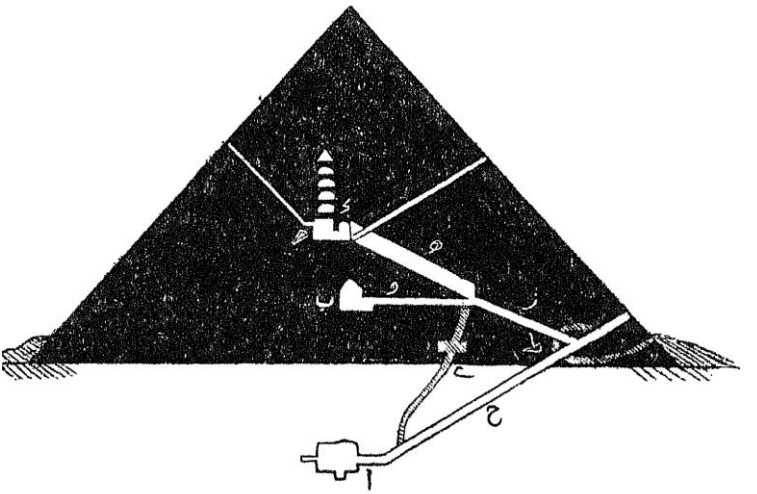

صورة الهرم الأكبر بالجيزة

أولها نقطة (أ) التي هي رواق تحت الأرض لايمكن الوصول إليه لأن طريقه الان مسدود . "ثانيها نقطة (ب) وهي الرواق المعروف الآن باسم رواق الملكة وهذه التسمية في غير محلها لعدم قيام دليل على صحتها. ثالثها نقطة (ج) وتعرف باسم رواق الملك. رابعها نقطة (د) وهي بسطة يخرج منها مجريان للهواء انزلق منهما حجران كبيران فاغلق منفذي رواق الملك غلقاً حكماً بعد وضع جثته فيه داخل تابوته. خامسها نقطه كل من (هـ و ن ح) وهي سراديب أو

مجازات معدة لتوصيل الأماكن لبعضها.

سادسها نقط(ط) وهي بسطة يخرج منها السرداب الذي فتحه المأمون. سابعها نقطة(ج) وهي البئر التي تحير فيها عقل أولى النهى كما تحير في غرابة هؤلاء السراديب وهؤلاء الأروقة ومن تأمل في هذا الوضع الغريب ظهر له بداهة أن القوم ما اقترحوا عمل هؤلاء الأماكن المتشابهة الإعلام الكثيرة الأنجاد والأغوار ألا لتعميمه المسالك وحيرة من قصد التعدي على فتح هذا القبر الملوكي وإضلال كل من حاول خرق ناموس الأموات وهتك حرمة الملك بالدخول عليه في مرقده.

وبيان ذلك أنا إذا فرضنا أن الهرم لم يزل مغلوقاً على حالته الأصلية وأتي اللص المتعدى وحاول فتحه فإنه لا يهتدي أولاً إلى بابه لأنه مستور تحت كسوة الهرم فإذا تيسر ليه فتحه بأي حيلة كانت واهتدي إلى دهليزه الأصلي وهو المرموز له بحرف(ح) قابلته صعوبة شديدة لأنه مطمور بالصخور الهائلة فإذا نجح وكسرها وأخرجها منه فإنه يصل إلى الرواق(أ) الذي ليس هو رواق الملك فيضطر للبحث والتفتيش في جميع الدهليزا المذكور على دهليز آخر بتوصل به إلى المكان المطلوب وهو رواق الملك ومتى عثر على دهليز نقطة(ط) علل النفس ببلوغ الآمال وتيقن نيل المرام لكنه لم تمض عليه برهه يسيره إلا ويعلم أنه وقع في حيص بيص لما يراه مفعماً بالصخور الصلبة وحجارة الجرايت فإذا ساعدته المقادير وكسرها وجد نفسه في الدهليزا الصاعد إلى أعلى وهو المرموز له بحرف(ز) فإذا انتهى إلى غايته رأي بسطه(ك) ولها وضع خاص بها وهي وفوهة البئر محكمتاً السد ومتى أزال هذه الصعوبة الثالثة صار في دهليز(و) وانتهى إلى الرواق(ب) فيظن أنه نال جميع ما كان يتمناه ولكن بمجرد ما يعلم أن هذا ليس هو الرواق المطلوب يحتار في أمره ولم ينهجس بخاطره أن فوق رأسه دهليزاً آخر فيضطر إلى البحث والتنقيب ثانياً على باب مجاز آخر ومتى عثر عليه التزم بفتحه، ولا يتم له ذلك إلا بعد اللتيا والتي فيرى دهليزا بارزاً صاعداً بجوار الحائط ويرى تلك المراقي المهلكة المرموز لها بحرف(هـ) ويصل أخيراً إلى الرواق المطلوب أما المجريان فيسهل فتحهما بقلب الصخرتين المعترضتين فيهما ومتى تم له ذلك رأي تابوت الملك والظاهر أنهم في مدة البناء وضعوا في الدهليز البارز المشار إليه بحرف(هـ) صخوراً من الجرانيت على قدر فراغ الدهليز(ز) ولم تم ال عمل ووضعت جثة الملك في رواقها تركو الصخور تنزلق بواسطة ثقلها من دهليز(هـ) إلى دهليز(ز) وأغلقوا البسطة(ك) ونزل العمال في البئر(ب) ووصلوا إلى الدهليز(ح) وخرجوا منه ثم ملؤه بالصخور

التي أتوا بها من الخارج وأغلقوا بعد ذلك باب الهرم وتركوه معضلة لمن أتي بعهدهم ومن المستغرب أن الإنسان إذا أطلق طبنجة او نحوها وهو أمام رواق الملك سمع صدى الصوت يتكرر نحو العشر مرات حتى يتخيل أنه رعد قاصف يتردد في جميع الأماكن ثم يأخذ في الانخفاض شيئاً فشيئاص ويكل اللسان عن وصفه.

وقد ظهر بالحساب أن ارتفاع هذا الهرم الناقص يبلغ ١٣٨,٣٠ متراً فلو أضفنا إليه ٨,٢٠ أمتار التي هي عبارة عن قيمته الناقصة لبلغ ١٤٦,٥٠ ولو زادنا عليه ٤٢ متر وهى قيمة ما بين أرض المزارع وقاعدته لبلغ ١٨٨,٥٠ متر

أما زاوية الميل في جمعي الأهرام فواحدة وقدرها ٤٥ ° ١ واحد وخمسين درجة وخمسة وأربعين دقيقة ومن ذلك استنتج المرحوم محمود باشا الفليك أن بناء الأهرام كان قبل الميلاد بنحو ٣٣٠٣ سنة معتمداً في ذلك على أن القدماء لما بنوها جعلوا هذا الميل ثابتاً في جميعها حتي يكون متعامداً مع أشعة كوكب (سيتس) المعروف باسم(الشعري اليمانية أو كلب الجبار) الذي كانوا يعبدونه باسم (توت) بحيث أن أشعته النورانية كانت تقع عمودية عليه من جهة الجنوب ليتبرك بها الأموات من داخل الأهرام كما اننا نجعل رؤس أمواتنا متجهة دائماً نحو القبلة تبركاً بالكعبة المطهرة إلى ان قال وقد علم من رصد هذا الكوكب أنه ينحرف في كل سنة عن ميل وجه الأهرام بقدر ثانية واحده وثلثاي[١].

وقد وحد كثير من الأحجار المنحوته على هيئة الأهرام والمسلات موضوعة في المقابر بجوار الأموات أو أحجار مرسوم عليها صورة الأهرام وبازائها علامة الكوكب وجمعها للسيرك فعلم من ذلك أن الأهرام كانت عندهم رمزاً على هذا المعبود الذي كانوا يصورونه في معابدهم في هيئة جسم إنسان رأس الطائر أبيس (المعروف باسم أو خنجر وكانوا يعبدونه أيضاً) أو رأس كلب و هذا الشكل يعرف في لغة اليونان باسم(سينوسيفال) راجع شكله في المعبودات.

وكان هذا الكوكب يظهر مدة الفيض ويختفي في آخره وعلى ذلك جعلوا أول ظهوره مبدأ لسنتهم وسموا أول شهرها باسمه وقالوا شهر توت أي الشهر الذي يظهر فيه المعبود توت وهو عندهم خفير السماء وملك الكواكب ويق الشمس من الوقوع في الهاوية المهلكة وأنه موكل

---

(١) تنقسم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة وكل واحدة إلى ٦٠ دقيقة كل واحدة منهم إلى ٦٠ ثانية وكل واحدة منها إلى ٦٠ ثالثة وكل واحدة إلى ٦٠ رابعة

بكابه أعمال الأموات يوم الحساب وبيده الميزان وكانوا يصورونه قابضاً على رقعه يكتب فيها موازين الناس وأنه كان حاكماً في الأرض ووضع بها كثيراً من العلوم وكانوا يسمونه أيضاً هرمس وهل هو هرمس الهرامة أي هرمس المثلث أو أخنوخ المعروف عندنا باسم إدريس عليه السلام أم هرمس آخر غيره وسيأتي بيانه في الباب السابع عشر وبالجملة قد نسبوا إليه جميع ما ننسبه إلى إدريس عليه السلام وذكر المقريزي نقلاً عن مؤرخي العرب أن هرمس بنا الأهرام المصرية وأن الهرم يسمى أبو هرمس إلى آخر ما قال ويرى الآن كثير من الأهرام بأرض مصر الوسطي وقد اكثر الناس من وصفها ومساحتها وكلها في برا الجيزة وتمتد في نحو مسافة يومين أو أكثر وبعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولبن وأكثرها حجر وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس وذكر بروكش باشا أنه يوجد الآن منها نحو الاثنين وسبعين أولها بكفر أبي رواش وأخرها بالفيوم فتارة تكون مجتمعة بعضها وتارة متباعدة وارتفاع أصغرها نحو السبعة أمتار وارتفاع اكبرها نحو مائة وستة وأربعين متراً وهو غاية ما أمكن بناؤه إلى الآن.

أما كيفية بنائها فهو أن كل واحد من فراعنة العائلة الرابعة والخامسة استولى على أريكة الملك كان يشرع من ابتداء حكمه في حفر الأرض وتذهب كبراء دولته تبحث له في جميع أرجاء المملكة على صخرة من المرمر أو الجرانيت الذي يصلح أن يكون تابوتاً وتشرع أهل البلاد والأقاليم في قطع الأحجار من مقالعها بالجبال واحضارها إلى المكان الذي يعينه الملك لهم ومتى فرغوا من ذلك أخذوا في بناء الهرم حتى إذا تم شيدوا بجواره معبد لتقدم الرعية فيه قرابينهم بعد موته وتقدم فيه الكهنة عبادة خاصةً له ثم يقوم من بعده ملك آخر فيستأنف العمل وهكذا ومن ذلك يعمل أن الرعية كانت في غاية الظلم والجور من ملوكهم واستنتج بعض الافرنج أن للمصرين قدرة على مزاولة الأشغال الجسيمة وأنهم متى وجدو من يرشدهم لما فيه الخير قاموا بذلك أحسن قيام.

أما المقابر القديمة فكثير جداً بأرض مصر وأغلبها في سفح الجبال وفوقها وفي الكهوف والمغارات والأودية وتحت الرمال والصخور في الآبار العميقة وهاك وصف أحسنها قال العلامة مسبور في تاريخه المسمي تاريخ قدماء الأمم المشرقية ما ملخصه تتركب المقابر الفروعونية التامة الصناعة من ثلاثة أقسام كلية وهي رواق وبئر ثم حجرة أو مغارة

أما الرواق فيكون مربع الأضلاع من رآه من بعد ظن أنه هرم ناقص وجدرانه المبنية من

الحجر والطوب مائلة على بعضها وبابه المتجه عادة إلى الشرق يلعبوه اسطوانة أفقيه تشتمل على أدعية وإن شئت قلت أوامر أصدرتها الكهنة إلى معبودهم لصالح الميت قبل وفاته تقديمها ولم ير بالرواق القاعة تتغير بها حجر مربع يعرف عندنا الآن باسم الشاهد يتضمن اسم الميت ولقبه وبجانبه مائدة من المرمر أو الحجر الجيري أو الجرانيتي وأحياناً يرى مسلتان صغيرتان مجوفتان من أعلاهما وهما والمائدة يوضع عليها الخبز المقدس والمشروبات والمأكولات والصدقات المشترط أداؤها وتارة تكون جدر الرواق والقاعة مستورة بالنقوش والنصوص البربائية ومصور بها حالة الميت وهو في الحياة الدنيا فترى في إحدى الجهات صورة حالنا المنزلية وحوله طباخين يضرمون النار ويروجون الطعام ورجالاً مشمرين للخدمة ونساء راقصات يغنين على نغمة الرباب والمزمار والأوتار وترى في الجهة الأخرى صورة صيد البر والبحر ومصارعة الوحوش ومقارعة الأبطال أو بساتين ومروج خضرة نضرة تسرح بها السوائم من كل نوع أو هجوم النيل وتدفق مياهه على الأرض وصورة الحراثة والبذر والحصاد وتخزين الغلال وترى في غيرها صورة العمال من كل نوع وكل واحد يباشر صنعته ويزاول مهنته منهم النجار والزجاج والسباك والخشاب يقطع الأشجار ويرميها على الأرض أو يبني سفينة ونساء ينسجن الأقمشة تحت خفارة أحد الطواشية وهو قائم على رؤوسهن مقطب لوجه عابس الخلقة كأنه سئم من كثرة لغطهن وترى صاحب القبر كأنه حيّ واقف خلف سفينة عظيمة يأمر ملاحيها بالسير والإقلاع وهي راسية على الشاطئ الشرقي من بحيرة كي تسير به إلى الشاطئ الغربي منها والمراد بهذا الشاطئ هو القبر ليدفن فيه لأنه رمز له أما الشاطئ الشرقي فرمز للحياة كأنه يقول لاتغرنكم الحياة الدنيا لأني ملكت كل ما ثرون ثم انظروا أخيراً ماذا جرى أو كأنه يقول شعراً.

كل ابن انثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

أو يقول

انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن

وتراه أحياناً جالساً يأخذ العطايا من صفوف من الناس يتلو بعضهم بعضاً وهذه الصفوف عبارة عن أجداده والعطايا عبارة عن التراث الذي ورثة منهم ومانا له من الهدايا الملوكية وما يقدم له من الصدقات بعد الموت وبازاء بعض الرسوم عبارات تناسب للمقام منها رجلان مصوران يذبحان قربانا إلى الميت فيقول أحدهما لصاحبه(اقبض جيداً وامسك بقوة) فيحييه الآخر(قد

فعلت أسرع بالعمل) ومنها ملامح في سفينة راسية على الشاطئ الشرقي من البحيرة يصبح بشيخ هرم يمشى الهوينا وقد أبطأ في السير نحوها فيقول له(أقرب من السفينة واركب فيها بلا توان) فيجيبه الشيخ وهو يقصدها(ها أنا آت فلا تعجل عليّ ولا تكثر اللغط) والمعني أن الموت يطلبه.

أما الرواق فكان يجتمع به أولاد الميت وحفدته وذووه والكهنة المكلفون بأداء العبادة فيأتون في أيام معلومة من السنة كالأعياد والمواسم فيرون المقبور مصوراً بينهم محاطاً بخدمه وحشمه غارقاً في لذات دنياه فيتذكرون ما كن له من الخيرات والنعم ثم ما آل إليه أمره بعد ذلك وجميعها نصائح وأدبيات يغني قليها عن مطالعة المجلدات الضخمة.

وأما البئر فتكون في إحدى زوايا الرواق أو من خلفه وهي مربعة الشكل مبنية بالحجر حتى تصل إلى الطبقة الأرضية الجحرية ويختلف عمقها من اثنى عشر إلى خمسة عشر متراً وربما بلغ نيفا وثلاثين متراً وفي قاعها مما يلي الجنوب سرداب أو ممجاز يمشى فيه الإنسان منحنياً حتى يصل إلى الحجرة أو اللحد ويوسطه تابوت من الجحر الجيري أو البزلت الأسود المصقول أو الرخام أو غيره كالخشب ونحوه منقوش عليه اسم الميت ولقبه وبجوار ذلك ربع الثور الذي كانوا ذبحوه له قرباناً عند دفنه وقدور كبيرة من الفخار مملوءة بالرماد وأوان مملوءة بأحشاء الميت التي كانوا أخرجوها منه وقت التحنيط وهذه القدور تعرف عند علماء الآثار باسم كانوب وكانت عادتهم أنهم متى جهزوا الميت بجميع ما ذكر ووضعوا معه الفصوص وغيرها وبجواره الوكاك (سيأتي الكلام عليها) يسدون عليه باب السرداب سداً محكماً ثم يردمون البئر بفتات الحجر وغباره الممزوج بالرمل والطين ويبلونه بماء غزير ويدقون عليه حتى يتلبد ويصير في صلابة الأحجار أو المونة القوية التي يعسر فكها ويتركونه بهذه الحالة.

وتكون المقابر بجهة الجيزة صفوفاً مرتبة النظير لنظيره كأنها شوارع منتظمة وتكون في الجبل الغربي من قرية سقارة وأبي صير مختلطة في بعضها بلا ترتيب ولا قانون لهيئتها وتكون في غير هذين المحلين إما متقاربة أو متباعدة عن بعضها وآبارها إما عميقة جداً أوقريبة ورأيت ما بلغ منها نحو الخمسين متراً بل أكثر من ذلك محفورة في الحجر فوق الجبال وفي سفحها وفي الأودية وغير ذلك وبها من النقوش والكتابة ما لا تخفي فائدته العملية حتى قال العلامة مسبرو كأننا نشاهد الآن خروج العائلات المنفيسية من قبورها رويداً رويداً لإفادة التاريخ المصري القديم ولما إتبعنا

آثارهم وقفنا على أحوال وسير الملوك الذين مضوا وتلك الأمم التي إنقضت وعلمنا جميع ما كان من أمر كهنتها وعساكرها ورئيسها ومرؤسها وضباط الحرس السلطاني وما يكتسبه الصانع الحقير وبدت لنا أخلاقهم وعوائدهم حتى ملابسهم وكأننا نشاهد الآن حركة بناء الأهرام لكن من الأسف أننالم نجدد ذكراً في الآثار لملوك العائلة الثالثة والتي قبلها اه.

ورأيت بالصعيد قبوراً كثيرة كأنها منازل منحوتة بالجبال تشتمل على فسحة ورواقين متقابلين مملوأين إلى السقف بالرمم الرطبة التي كان أصحابها ماتوا لوقتهم وما ذلك إلا لكونهم حنطوها بالملح الجبلي وكفنوها بأقمشة من الكتان وأدرجوا كل واحدة في حصير إتخذوه من جريد النخل فعلمت أن هؤلاء القبور كانت لفقرائهم وكثيراً ما كنت أجد في مغاراتهم المنحوتة بالجبال توابيت مصنوعة في الجدار الحجري يعلو بعضها بعضاً كأنها رفارف منعكسة أو أخاديد أفقية داخلة في الجدار ورأيت بمديرية أسيوط مغارة بالجيل الشرقي تبعد عن قرية المعابدة نحو الأربع كيلومترات وطريقها وعر جداً وكان بلغني من عمدة الناحية أن المرحوم سعيد باشا وإلى مصر سابقاً قصدها ليتفرج عليها ومكث بجوارها نحو الثلاثة أيام بعساكره وما قدر أحد ممن كان بمعيته أن يدخلها الضيق دهليزها وإمتداد طوله وكراهة ريحه وظلامه فلما سمعت ذلك تجردت مما أخاف عليه من ثيابي ودخلتها وصحبتي مفتشش آثار المديرية المذكورة والدليل والشموع الموقودة فكنا تارة نمر فيه حبواً وتارة زحفاً على البطون وأذقانها تكنس الأرض وقاسينا هول يوم القيامة وضاقت نفسي وإنقبض صدري مما به من الرائحة الكريهة النفاذة المخنقة فتارة كنا نتسحب في طريق مستقيم وتارة نزحف كالثعابين متبعين تعاريج الدهليز ميمنة وميسرة حتى علق بوجوهنا وثيابنا مادة لزجة كأنها العثان (الهباب) المعجون بالماء ولضيق الطريق وتعرجه كان جسم الدليل يحجب نور الشمع عن أبصارنا مع أنه يزحف على بطنه أمامنا عاري الجسد وكم انصدم رأسي في السقف والجدار وسال دمي وانجرح بطني وأتلفت الرطوبة جميع ثيابي واعتراني سعال حاد وبقيت على هذا الحال أكثر من نصف ساعة حتى وصلت بكل جهد إلى حجرة واسعة مملوءة برمم الآدميين والتماسيح المحنطة وأكفانها من الكتان وكان قدمي بصوخ كل خطوة في تلك الرمم الرطبة المطروحة فوق بعضها بلا ترتيب ثم مكثنا بها نحو الربع ساعة وخرجنا منها وقاسينا ما قاسيناه وتخلصنا بعد شق الأنفس ثم أخذت راحتي وتفكرت في أمرها وتيقنت أن لها باباً آخر لأن السرداب غير كاف أن تفوت منه جثة الميت فأخذت أبحث طويلًا عنه ولم أجد ثمرة لكن عثرت على مناور للدهليز محكمة الغلق ثم مكثت نحو الأسبوعين وأنا أشكو برأسي مما أصابني

وكانت رائحة المكان تتردد في أنفي ثم أرسلت له من قاسة بالخيط ويغلب الآن على ظني أنه بلغ ٨١ متراً وفي مقابلة هذه الصعوبة حققت مسئلة لطيفة سوف يأتي بيانها إن شاء الله تعالى وليست هذه المشقة شيأ يذكر بالنسبة لجميع ما قاسيته بأرض الصعيد فإني اقتحمت أهوالًا عظيمة وتكبدت الشدائد وعاينت المهالك والأخطار وجبت المخاوف بالجبال وقاسيت العطش واصطليت لظي الحر وتكلفت التعب الزائد حتى أشرفت جملة مرات على الهلاك غير أني إكتشفت آثاراً جليلة كانت مجهولة لمصلحة الآثار وكتبت عنها التقارير فصارت الآن معروفة عندها والله الهادي إلى سبيل الرشاد.